واما الشعوب المجاورة لتدمر فمن المتبادر ان اخصّهم قبائل العرب التائهة في بادية الشأم والجزيرة وشمالي بلاد العرب. اولهم بنو السميدع المشهورون في تواريخ تدمر وهم الاقدمون في بلاد العراق وبراري الشأم والحوران واليهم ينتمي آل أذينة الثاني زوج زينب الذي كان زعيم هذه القبيلة وقت احراز اخوهُ خيران وظيفة الشيخ الاعلى في وطنه. والمعلوم ان الرومان عند ما فتحوا بلاد الشام عثروا على هؤلاء العرب فاستمالوهم ووكلوا اليهم المدافعة عن حدود الاقاليم الشرقية فدعوا امراءهم « فيلاوك » اي زعماء قبائل

(ستأتي البقية)

الاسبان والاميركان

نظر في اخلاق الشعبين واخصّ علائقهما

للشاب الاديب جول كنسفليس احد تلامذة كليّة القديس يوسف

(وهي مقالة اقترحت على طلبة الفلسفة والبيان فنال صاحبها جائزة الشرف اختصرنا منها هذه النبذة لفوائدها)

لم تكن اميركة الجنوبية في غرّة هذا العصر الّا مستعمرةً رحبة الارجاء تحت حكم اسبانية تتصرّف فيها كما تشاء. وكان يحقّ وقتئذٍ لابنائها ان يردّدوا قول ملكهم العظيم كرلس الخامس وهو يفتخر بهذا الارث الجليل الذي خلّفهُ له كُرتيس ويقول: « انّ الشمس في سيرها لا تغرب عن ممالك الاسبان ». اما الآن فقد دالت دُوَل الايام وتغيّرت احوال الزمان مذ خيّمت الثورة على تلك المستعمرات فخلع سكّانها نيرَ العبوديّة وآثروا الاستقلالَ على الطاعة والحرّيةَ على الانقياد ولم يجنحوا الى السلم حتى بلغوا ما يبتغون

وبينما كانت دولة اسبانية تأسف على فقد املاكها في الخارج وتتلهّف على خؤور قواها في الداخل كنتَ ترى دولة أُخرى حديثة النشأة تنمو شيئاً فشيئاً حتى انهُ لم يمرّ عليها مئة سنة الّا واشتدّت شوكتها واستفحل امرها فبلغ ملكها من الشمال الى الجنوب وامتدّ من اوقيانوس الى آخر. على انّها طمست معالم الفِتَن وقلّلت اظفار الحرب الاهلية وهي اليوم متسربلة من المجد بالفخر وشاح ترتقي في معارج التقدّم والنجاح وعيناها شاخصة الى نجم

السعد وكوكب الفلاح. ألا وهي الولايات المتحدة التي في ميعة شبابها عارضت قرينتها اسبانية وبينهما من التباين ما لا يخفى على ذي بصر

والحق يقال انّ ذكر الاسبان والاميركان يخطر في البال حوادث ذات شأن طالما شغلت الافكار لا يمكن السكوت عنها لاسيّما في الوقت الحاضر اذ جمعت نُوَب الزمان بين هاتين الدولتين في مقام حرج ومجال ضنك لا تخرج منهُ احداهما الّا مقهورة بعد ان داوت عليها رحى حرب عوان

وعليهِ فقد استصوبتُ ونحن شهودٌ لهذه المبارزة الخطرة منتظرون لعقباها المشؤومة ان اسرّح النظر في مسارح التاريخ للاطّلاع على احوال الامّتين في ما سبق من الزمان وأستقصي بطون الصحائف لمعرفة ما جُبلت عليهِ كلتاهما من الطباع وما دارت بينهما من العلائق. وفي هذه المعارضة نظر للمفكرين وعبرةٌ للمعتبرين فاقول:

١

انّ الاسباني يُعرف باربع صفات طُبع عليها دون من سواهُ وهي تحشمهُ لدينهِ ثم عزة نفسهِ وثباتهُ مع حبّ شديد لوطنهِ

هي الدولة الاسبانية دولة عريقة في القدم يملأها شرفها الماضي زهوًا وافتخارًا فكأنها اليوم تحيا من ذكر ما احرزتهُ في سالف الاعصار من المجد الاثير فتأبى ان تُفتى بانحطاط امرها عمّا كانت عليهِ من رفعة الشأن في عهد كرلس الخامس وايام فرديناند

لمّا فتح كريستوف كولمب اميركة جعل الاسبان يتهافتون الى هذا العالم الجديد ليجنوا من كنوزهِ الواسعة القناطير المقنطرة فيعودون الى اوطانهم ومناكبهم تنوء دون عبء الاموال التي جمعوها فلا يلبثون ان يصرفوها في بذخ العيش ويبذرقونها في اصناف الملاهي

بيد انّ هذا الذهب الذي اشرأبّت اليهِ اعناق الاسبان طامعة كان اوّل سبب لتقهقر بلادهم فافسد اخلاقهم وبرّد همّتهم وكان الضربة القاضية على تجارتهم وصناعتهم. وقد كانت تربة اسبانية خصبة كثيرة الغلّات وهي مع ذلك غنيّة بالمعادن كالحديد والزئبق والرصاص والزرنيخ. ولكن الاسبانيّ لم يكترث بهذه الكنوز الوطنية ليستفيد مال البيرو بلا عناء ويكتسب ذهبهُ الابريز كفضية باردة. واليوم اذ أقفلت في وجههِ ابواب العالم الجديد تراهُ فقير الحال واهي العزم لا طاقة لهُ ان يعود الى ما كان عليهِ سابقًا من الجدّ والنشاط في تعدين المعادن واستثمار الغلّات. ولذلك انحطّت الصناعة الاسبانية عن

مقامها الاوّل اي الخطاط . فاين مثلاً تلك النسجة الحرير المزركشة بالذهب والفضة ؟ اين معامل الاسلحة والمرايا وضروب الجاود التي اشتهرت بها مدن قشتالة ؟ فلم يبقَ منها سوى ذكرها اللهمَّ الّا في قليل منها

فلا غرو بعد ذلك ان نرى اسبانية غريبةً عن اكثر الاختراعات الحديثة لم يأتِ اهلُها بشيء يُذكر من مكتشفات هذا العصر العجيبة . وبينما كانت تفتخر فرنسة وانكلترة والمانية وايطالية وبقية الدول المتمدّنة بمشاهير الرجال الذين غيَّروا بحتّ مداركهم هيئة المعمورة فذلّلوا قوى البخار واستخدموهُ في سبيل الصنائع وتوصّلوا الى كشف القناع عن غوامض الكهرباء ومفاعيلها العجيبة كان الاسبان في خمول وفتور لم يجاروا تلك الدول كأنَّ شمسهم آلت الى الأفول لم يسطع منها سوى اشعَّة ضعيفة هيهات ان تضاهي الانوار اللامعة المنبعثة من غيرها

ولكن وان سلّمنا بتضعضع قوّة اسبانية وبرود همّتها فلا يسعنا الّا ان نثني على ما اتّصف به الاسبان من المزايا الجميلة والشمائل الحسنة فاذا اعتبرناهم وجدنا ان الدم الشريف الذي ورثوهُ عن اجدادهم لم يتغيَّر في عروقهم وان شجاعتهم لم تنقص وثباتهم لم يقلّ ولاسيَّما انَّك تراهم محافظين على دين آبائهم ناشئين طريقتهُ المثلى ومعتصمين بعروته الوثقى

ولنا في ذلك البرهان الجليّ والدليل السنيّ في تاريخهم في اوائل هذا العصر اذ قام هذا الشعب وحدهُ في وجه نابوليون الاوّل وقادم كلّ قوّاته وردّ الأمل الى قلوب اهل اوربّة بما اظهرهُ من النباهة في سبيل دينهِ والمدافعة عن تخوم بلادهِ . وكان الوطن اذ ذاك في مقام حرج وطئت ارضهُ اقدام الاعداء . وجلُّ قصدهم ان يستولوا على مملكة اسبانية القديمة ويلبسوها ثوب العار والذلّ فانتبه الشعب لساعتهِ من سِنَتهِ وهَبَّ من رقدتهِ وآلى على نفسهِ إلّا ان يسفك حتى آخر نقطةٍ من دمهِ لوجه الله وفي سبيل الوطن . وقد شهد المعاصرون بأنَّهُ قام الاسبانيّ برعدهِ ببأتهِ وبسالتهِ فكاد يزعزع قوّة نابوليون وخلّف لهُ على صفحات التاريخ ذكرًا طيّبًا لا تزيل بهاءهُ الأيام

وعلاوةً على هذه الخلال الحسنة تجد في الاسباني مزايا اخرى تُكسبهُ وفرة حُرمة ومزيد اعتبار فانَّهُ نموذج مِضياف حرّ كريم الطباع صدوق مُخلص في معاملاتهِ وبوجه الاختصار أنَّهُ متّسم باخلاق الامم المعروفة باللاتينية بيد أنَّهُ فيه ايضاً نقائصها . كما اننا لو

صرفنا النظر واعتبرنا اخلاق الاميركان وجدنا فيهم كلّ خصال الامم المعروفة بالسكسونية وعيوبهم في درجة عُليا

هذا ومن اراد ان يعرف حقّ المعرفة طباع الاميركان يُقتضى عليه ان يميّز في تاريخهم طورَيْن مختلفين. فالطور الاوّل يمتدّ من سنة ١٧٧٩ الى منتصف عصرنا والثاني منذ ١٨٤٠ الى ايّامنا. وكانت اميركة في الطور الاوّل متّصفةً بروح مُنشئها وشِنكتون وما ذاك الروح سوى روح الشيعة البروتستانية المعروفة بالصُفاة (Puritains) ولاصحاب هذه الشيعة غلوٌّ في التعبُّد وتعصُّب في الدين يُفضي بهم الى الافراط في الشدّة والصرامة. فكانت شرائع الاميركان وسننهم متشرّبة هذا الروح فكانوا لذلك يتجاوزون الحدود في معاقبة الحَلَف والشتم والتجديف فضلًا عن الجرائم الكبيرة. وكانوا يشدّدون المراقبة على الجرائد وينهون عن حضور الملاعب وينبذون كلّ اصناف الملاهي. ولم تزل آثار من هذا الروح باقيةً في بعض انحاء اميركة الشمالية

وقد تغيّر هذا الروح منذ سنة ١٨٤٠ وعقبهُ في الولايات المتّحدة روح آخر امتدّ بين وجوه الشعب واعيان الامّة وأدّى بهم الى الالحاد والزندقة. ودخلت بينهم بمساعدة الجمعيّات السرّية مبادئ الحرّية والثورة فلم يلبث الجمهوريّون وفي مقدّمتهم جفرسون ان ينشروا راية الاستبداد التامّ وينادوا برئاسة الشعب في كلّ الولايات. وقد سلك موديسون ومُنروي وغيرهما مسلك جفرسون واحترزوا عملهُ

وللاميركان في يومنا خواصّ تفرزهم عمّن سواهم فترى طباعهم مجبولة من صفات خاصّة محمودة وخصال عمومية مستقبحة. لهم المشروعات الجليلة في سبيل الخير بينما يباشرون اعمالًا اخرى تنبئ بانحطاط عظيم في آدابهم. وما يمتاز به خصوصًا اهل اميركة انّما هو حبّهم المفرط للحرّية فانّ أرغب شيء لدى الافراد الاستبداد الشخصي واستقلال الجمهور فترى الواحد منهم يبغض كلّ ما من شأنه ان يضايقهُ في تصرُّفه كائنًا ما كان ويبلغ به الامر الى ان يبغض السلطة الشرعيّة وكلّ ما يمثّلها في عينه

ومن خواصّ الاميركيّ كلَفهُ بالمال وطمعهُ في التكسب فلا يُقدم على امر او مشروع ما لم ينظر اوّلًا ما يتّجه لهُ عنهُ من الفوائد المادّيّة

امّا حبُّ الوطن فتراهُ واهيًا ضعيفًا في قلب الاميركي فيتعصّب كلٌّ لولايته الخصوصية يشغلهُ حبُّهُ لها عن الالتفات الى خير العموم وصوالح التحالُف الوطني. وإنْ ذلك الّا نتيجة

اختلاط العناصر الشتّى التي منها تكوّنت اميركة. فاكثر سكان شمالي اميركة الانكليز ذوو الطباع الابيّة والاخلاق الجافية والارلنديّون الكثيرو النشاط القليلو الثبات في العمل وهم ألدّ اعداء الانكليز. وفي الجنوب وعند تخوم كندة تجد الفرنسيين مع ذكائهم المعروف وحفّة طباعهم. اما جهات الجنوب الشرقيّ فيسكنها الاسبان مع ما ذكرنا فيهم من الصفات. وزد على هذه العناصر الاربعة كثيرين من الالمان وقبائل الهنود المستهانة والمولّدين الخلاسيّين وهم معروفون بسوء آدابهم وذلّة اخلاقهم. فيحصل من اختلاط هذه الامم المتباينة احقاد وضغائن اضرمت سرارًا بين الاهلين نار الفتن وقد كادت الحرب الاهلية تفصم منذ بضعة سنين حبال الوحدة الاميركية

وكان صاحب استقلال اميركة لمّا اراد الاعتزال عن الاشغال السياسيّة جمع رصفاءه والقى عليهم خطاب الوداع وختم كلامهُ بهذه الوصيّة الاخيرة: « والحذر كلّ الحذر من روح التغيير والابتداع ». بيد انّ الاميركيين لم يجروا على مقتضى هذا القول فانّهم اليوم يدّعون الرئاسة لأنفسهم ويحاولون قيادة شعوب اوربّة وراءهم. وعليه فقد انكبّوا على درس العلوم الآليّة وبرّزوا في المعارف الصناعية والرياضيّات التي من شأنها الفائدة الماديّة والمعاملات التجاريّة. ولم يحبط مساعيهم فان كثيرًا من الاختراعات والاكتشافات الحديثة قد وقف عليها الاميركان او حسّنوها تحسينًا مهمًّا. وحسبنا القول ان اوّل من جهّز السفن بالبخار وسيّرها في عُباب البحر كان رجلًا اميركيّ الاصل اسمهُ روبرت فُلتون. ولم تلبث اميركة حتى استهلّت بالبخار فنّ البحريّة الحربية سنة ١٨١٤. امّا الآن فلا يكاد يمرّ يوم واحد دون ان تطلعنا الجرائد على بعض مبتدعات الاميركيين. والحقّ يقال انّ لهذا الشعب نشاطًا غريبًا وهمّة عليا. وقد اضحت اليوم اميركة في حالة من الخصب والتقدّم حتى صارت تزاحم اوربّة بتجارتها وتنقل بضاعتها الى كلّ انحاء العالم وهي مع ذلك مستغنية عن محصولات اوربّة لا حاجة لها فيها

ومجمل القول ان اميركة تامّة العُدّة كاملة الأهبة لولا انّهُ ينقصها رجلٌ ذكيّ الفؤاد سامي المدارك كفرسيا موريتو يُحسن صيانة حقوق الشعب والمدافعة عن حرّيته بينما هو يعلمهُ ان يُخلص خدمة ربّ العالمين ويرشد خطواته في سبيل التمدّن الحقيقي. امّا اسبانية فان لها حاجةً ماسّة الى رجل ذي همّة واقدام يسدّ اوهامها السابقة واغترارها بالماضي فينعش فيها روح الجهاد ويلمّ شعثها لاستدراك الفساد في المستقبل

٢

قد بيّنّا في ما سبق شيئاً ممّا طُبع عليه كلا الشعبين الاسبانيّ والاميركيّ من الاخلاق والسجايا فبقي علينا ان نشير الى اخصّ العلاقات السياسية والتجاريّة التي دارت بينهما منذ نشأت الولايات المتحدة الى الحوادث الاخيرة

انّ البندقيّين حنّا وسبستيان كابوت (Cabot) هما اوّل من تفقّد الولايات المتحدة في اواخر القرن الخامس عشر (١٤٩٧) ثم توارد اليها الفرنسيّون والاسبان والهولنديّون فاستوطنوا بعض نواحيها. الّا انّ الانكليز اصابوا بعدئذٍ القِدح المعلّى في تلك الاصقاع فبلغ عدد مستعمراتهم في اواخر القرن الثامن عشر ثلاث عشرة مستعمرةً يقسمونها الى ثلاثة اقسام انكلترة الجديدة والفرجيني وبنسيلفانيا. وكان بين سكّان تلك البلاد تباين واختلاف من حيث العوائد والطباع يتعاطى اهل الشمال منهم الصناعات والفنون امّا اهل الجنوب فكانوا يوثرون الفلاحة ويرتزقون بالزراعة. وكان لا يجمع بينهم رابط سوى حبّ الاستقلال وروح الاستبداد

وعليه لمّا اراد الانكليز ان يبهظوا عاتقهم بثقل المكوس وضربوا عليهم الضرائب الفادحة تناست تلك الشعوب ما بينها من الاختلاف ولبّت دعاء وَيشنكتون فصارت يداً واحدة على العدوّ وجاهرت بالحرب فلم تزل تخوض عبابها سنين متوالية وهي تسفك دماءها عن طيب خاطر في سبيل المدافعة عن حقوقها الى ان فازت بالمرام فاستلفتت انظار اوربّة ومدّت اليها فرنسة يد المساعدة. وحالفت دولة اسبانية الفرنسيين في ذلك وضمّت سفنها الى سفنهم املاً منها ان ترغم معاطس انكلترة قرينتها في اميركة وتسترجع ما استلبهُ الانكليز من جبل طارق وجزائر منورقة

وكانت نتيجة هذه الحرب العوان استقلال الاميركيين وكَبح سلطة الانكليز. امّا الاسبان فنالوا في معاهدة ڤرسايل جزاء عن بلائهم الحسن ملكَ جزائر منورقة وبلاد الفلوريد. وكانت هذه المرّة الاولى جرت فيها بين الاسبان والاميركان العلائق الوديّة. فجادت اسبانية بنفسها لصوالح الولايات المتحدة ولم تكُ وقتئذٍ لتفتكر ان تلك الدولة الحديثة ستزاحمها يوماً في املاكها وتنتزع منها آخر بقعة من الارض تبقى للاسبان في العالم الجديد...

وما كادت الولايات المتحدة تفوز بالاستقلال حتى اخذت في النموّ وزاد عدد سكّانها

زيادة غريبة الى ان بلغ المهاجرون اليها سنويًا سبع مائة وخمسين الف نفس. وكذلك نما على راياتها عدد النجوم المنبئة عن الولايات المنضمّة الى تحالفها فارتفع من ثلاث عشرة ولاية الى ما فوق الاربعين. وكنت ترى بعكس الامر ظلّ اسبانية يتقلّص على قدر غمر اميركة ورسوخ قدمها في سُبل التقدّم ولعلّ الاميركيين لم يكونوا بُراء من انتقاض حبل هذه المملكة بما دسّوا لخصومهم من الدسائس

هذا وقد اصبح قول "مَنْرُوي" «اميركة للاميركيين» كشعار اعلنوا به الحرب لكل الاجانب وسدّدوه خصوصًا كسهم في قلب الاسبان ليستولوا على املاكهم الواسعة في اميركة ويتطاولوا على مستعمراتهم الزاهرة

ومما سهّل لاميركة تحقيق امانيها ما وجدتهُ في الاسبان من سوء التصرُّف مع اهل مستعمراتها فاتخذت ذلك بلاغًا الى مبتغاها. وكان كثير من الولاة والعمّال الاسبانيين يأتون هذه المستعمرات وهم يحسبونها طعمةً لمطامعهم لا يفكّرون في صالح رعاياهم. فثارت الفتن لذلك على الاسبان وطمح بصر الاهلين الى الاستبداد بينما كانت اميركة تعضد سرًّا مساعيهم وهي تدبُّ لقريتها الضرّاء وتمشي لها الخمَر

وكان اوّل ما انتزعتهُ اميركة من حكم الاسبان املاكها الواقعة في جوار الولايات المتحدة لاسيّما الفلوريد التي كانت اسبانية استردّتها كما سبق القول من الانكليز. فتربّص الاميركان حتى اذا وجدوا مساغًا الى بغيتهم في سنة ١٨١٢ زحفوا الى اللويزيان على ضفّة نهر المسيسيبي الغربية ثم اجتازوا الى العِبر الشرقيّ فاستملكوهُ وزاحموا الفلوريد حتى اضطرّ الاسبان الى بيعها وكانت اسبانية في ذلك العهد في حالة حرجة تشغلها الفتن الداخلية عن صيان املاكها الخارجية

وكان بقي لاسبانية في اميركة بلدٌ واسع ذو ثروة عظيمة نعني بقولنا بلاد المكسيك. بيد انّ اهلها لمّا احسّوا بما نالت الولايات المتحدة من الاستقلال لعبت في رؤوسهم سَورة الحرّية فنادوا بالحرب وخاضوا معامعها تحت قيادة زعيمهم هيدلغو فكانت الدولة على الاسبان. ثمّ استُؤنفت الحرب ولم تخمد نيرانها حتى افتتح المكسيكيون مدينتي ڤيراكروز ومادريحنا دي ألوَا سنة ١٨٢٤ فلم يعد للاسبان في اميركة الشمالية موطأ قدم

٣

هذا وانّ انتزاع الفلوريد والمكسيك من الاسبان لم يكُ ليرضي اميركة تمام الرِضى

طالما لاحت لها بارقة طمع. ونقول بالحري انّ فتح هذين البلدين كان كخطوة خطت بها اميركة لضبط املاك اخرى تخصّ الاسبان وهي جزيرة كوبا

وكانت هذه الجزيرة منذ امد مديد تهيج مطامع الاميركان وهم يغرون افواههم ليلتهموها مع علمهم بغزارة مياهها ونضارة جنّاتها وسعة ثروتها ووفرة محصولاتها. الّا انّ حادي الطمع ساقهم اوّلًا نحو الغرب حتى بلغوا الاوقيانس الاتلنتيكي وليس لهم في تعدّي حدودهِ من سبيل. ثمّ اشرأبّوا الى الجنوب فبلغوا تخوم المكسيك. ثمّ طمح طرْفهم الى الشمال فابتاعوا من الدولة الروسية بلاد الأَلسكة. فلمّا ضاقت بهم اليابسة حاولوا الاستيلاء على جزيرةٍ وجدوها في وجههم من جهة الجنوب الشرقي تدعى كوبا لثبت لكثرة خيراتها « دُرّة الأنتيل »

ولا يجهل الاميركان ما لهم من الصوالح العديدة والمنافع الجمّة في جزيرة كوبا. كيف لا وكانت تجارتها تزاحم تجارتهم اية مزاحمة ومحصولاتها اجود شأنًا وابخس ثمنًا من محصولات الولايات المتحدة. فضلًا عن انّهم يعلمون حق العلم انّهم اذا استملكوا كوبا احتكروا البنّ واستأثروا التبغ وصارت معامل السكّر في يدهم دون سواهم

فانّ فتح كوبا هو الداعي الصحيح الذي جعل الاميركان يبذلون النفس والنفيس للفوز بمطلوبهم ولم يسعهم كتم نيّتهم هذه. فانهم في سنة ١٨٤٥ بعد ان حلّوا سرًّا عقال الفتنة بين اهل كوبا عرضوا على اسبانية مشترى الجزيرة رضمّها الى ولاياتهم المتحدة. فلم يُجب الاسبان الى مُلتمسهم وردّوهم خائبين. فعمدت اذ ذاك اميركة الى وسيلة اخرى فارسلت بعض القرصان برأسهم قائد اميركيّ ليستولوا على الجزيرة بمساعدة بعض الاهلين من اصحاب الدسائس. فلمّا لم تأتِ هذه البسة بنتيجة حسنة انكروا انّ لهم بها علمًا. ولم يرعووا مع ذلك عن سوء تصرّفهم لأن الاميركيّ لا يعرف القنوط فجعلوا يتقرّبون الى حاكم الجزيرة محاولين رشوتهُ فأبوا بخفّي حنين. ثمّ سكنت حركةُ القوم مدّة يتربّصون الفرصة لنوال غايتهم. وكانوا في اثناء ذلك يوسّعون نطاق تجارتهم في كوبا حتى اضحت اكثر الاعمال بين ايديهم. غير انّ هذه الوسيلة لم تكفهم لسدّ مطامعهم فاضرموا اليوم نار الحرب ولا نظنّ ان سيخمد لظاها قبل ان تفقد اسبانية ابدع مستعمراتها. والله يهبُ الملك من يشاء. وليس لغيرهِ دوام البقاء